

تاريخ القبول: 2024/10/27

تاريخ الإرسال: 2024/05/26

تاريخ النشر: 2024/10/30

حضور الهوية الثقافية في صراع الأنا والآخر في رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي

The Presence of Cultural Identity in the Conflict between the Self and the Other in the Novel 'Labbaik: The Pilgrimage of the Poor' by Malek Bennabi

ط.د عبد المجيد جاعة¹ ؛ د. إبراهيم بن طيبة²

جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة (الجزائر)

¹ abdelmadjid.djaa@univ-dbkm.dz² b.bentaiba@univ-dbkm.dz

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية العامة والمقارنة

الملخص:

يتجلى حضور الهوية الثقافية في رواية "لبيك حج الفقراء" لمالك بن نبي من خلال تصويره التقاليد والقيم التي يتمسك بها المجتمع الجزائري ، ويبرز الصراع بين الأنا والآخر بشكل واضح حيث تتواجه الشخصيات مع تحديات التهجين والتغريب يعكس هذا الصراع خصوصية الهوية الثقافية الجزائرية أمام تأثيرات الثقافات الأخرى، كما يعبر بن نبي في روايته عن ما تمثله شعيرة الحج في قلوب المسلمين ، وما تحمله هذه الرحلة من تحديات واستكشافات ، يقدم السارد هذه التجارب على ضوء الأصالة والانتماء الثقافي للهوية الإسلامية ، مما يعزز فهم الذات والتمسك بالقيم في مواجهة التغيرات التي تطرأ على المجتمع الجزائري .

الكلمات المفتاحية: الهوية ، الثقافة ، الانا ، الآخر .

Abstract:

The presence of cultural identity is vividly portrayed in Malek Bennabi's novel "Labbaik, the Pilgrimage of the Poor" through his depiction of the traditions and values upheld by Algerian society. The conflict between the self and the other is prominently highlighted as the characters face the challenges of hybridization and Westernization. This conflict reflects the unique cultural identity of Algeria in the face of influences from other cultures. Additionally, Bennabi expresses in his novel what the pilgrimage means to Muslims, along with the challenges and discoveries it entails. The narrator presents these experiences in light of the authenticity and cultural belonging of Islamic identity, thereby enhancing the understanding of the self and the adherence to values in the face of changes affecting Algerian society.

Keywords: (Identity, culture, self, other)

المؤلف المرسل: عبد المجيد جاعة،
ABDELMADJID.DJAA@UNIV-DBKM.DZ

1. مقدمة:

في ظل فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر شكّلت الرواية وسيلة هامة للتعبير عن تجارب وهموم الشعب الجزائري وذلك في تصوير مواجهة محاولات الهيمنة الثقافية التي سعت إليها السلطات الاستعمارية ، كانت هذه الفترة من التاريخ مرحلة محورية تمر بها البلاد ، حيث كانت تعيش تحت الاحتلال الفرنسي الذي حاول بكل الوسائل فرض سيطرته على الثقافة والهوية الجزائرية ، محاولا الهيمنة الثقافية من خلال السياسات التي تبنتها السلطات الفرنسية ، حيث حاولت ترويج ثقافتها ولغتها

على حساب الثقافة الجزائرية الأصيلة ، كما تضمنت هذه المحاولات إغلاق المدارس العربية وفرض التعليم باللغة الفرنسية ، إلى جانب محاولات تشويه الهوية الثقافية الجزائرية وتجاهل تاريخها وتقاليدها، في هذا السياق لعبت الرواية دوراً بارزاً في مقاومة هذه المحاولات حيث استخدم الكتاب الجزائريين أدوات فنية لنقل صوت الشعب وقضاياه ، وإبراز جماليات وثقافة الشعب بطرق مبتكرة ، فمن خلال رسم أحداث الروايات وشخصياتها استطاع الكتاب إلقاء الضوء على الظلم والاستبداد الذي تعرض له الشعب الجزائري ، ونقل تجاربه وصراعاته بطريقة تمثيلية وفنية فشلت الرواية ساحة للتعبير عن الهوية والمقاومة الثقافية ، وكان الكتاب يعتبرونها وسيلة لإعادة بناء الذاكرة الوطنية وإحياء الوعي الجماعي بتاريخ الجزائر وروح المقاومة ، فكانت الرواية ليست فقط وسيلة للتعبير عن المجتمع ، بل أداة فعالة في صياغة الوعي الوطني وتعزيز الهوية الثقافية للشعب الجزائري في مواجهة التحديات الاستعمارية.

ومالك بن نبي من خلال روايته الوحيدة الذي كتبها سنة 1947 "لبيك حج الفقراء" يعالج فيها تحديات ثقافية واجهت المجتمع الجزائري في وقت الاستعمار ويتناول فيها أيضا رحلة الحج وإبراز القيم الروحية والجمالية ، إنطلاقا من بطل الرواية شخصية إبراهيم ورحلته في تغير ذاته مع تمثيلات الواقع الثقافي في مدينة عنابة ، فما هي الهوية الثقافية ؟ وكيف صورت الرواية تأثير الآخر على الذات الجزائرية ؟ وأين يتجلى حضور الهوية الثقافية في الصراع بين الأنا والآخر ؟

2. الثقافة والهوية :

يقول المفكر مالك بن نبي " فمفهوم " ثقافة " ثمرة من ثمار عصر النهضة، فعندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجلييلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر "¹ كانت أفكار مالك بن نبي مرجعا

هاماً في مجال الثقافة والهوية الوطنية في الجزائر والوطن العربي بشكل عام ، على اعتبار أن هذا المصطلح كبدائية مفاهيمية بدأ في الغرب " ومن هنا نفهم أيضاً أن كلمة " ثقافة " العربية لم تكتسب إلى الآن قوة التحديد التي كان لنظيرتها الأوروبية ، وإننا مضطرون من أجل هذا إلى أن نقرنها بكلمة **culture** في مؤلفاتنا الفنية ، حتى كأنها دعامة تشد من أزرها في عالم المفاهيم ² أي أن فهم الكلمة "ثقافة" في اللغة العربية وضعف التحديد الذي تحمله مقارنة باستعمالها الأوروبي " **culture** " يدعو إلى تقديم تفسيرات إضافية والحاجة إلى تفصيل أكبر وتوضيح دقيق عند استخدام مصطلحات ثقافية في ميدان اللغة العربية ، خاصة عند التعامل مع مفاهيم معقدة يصعب وصفها بشكل كافٍ باستخدام مصطلح واحد .

وعند تمنعنا في فكر مالك بن نبي نرى الرصيد الذي تركته نشأته الوطنية ، وأصالته وتمسكه بالهوية الجزائرية ، بالإضافة إلى التحديات التي عاشها في البيئة الثقافية التي كانت سائدة في وقته وهي بيئة يحكمها المستعمر الفرنسي الشيء الذي أثر على طبيعة فكره وتوجهاته الحضارية ، فالإهانة الفرنسية والقمع ومحاولة طمس الهوية الجزائرية جعلت بن نبي يملك حس جماعي ويستمد ثقافة مقاومة للاستعلاء الغربي ، والهيمنة على الآخر وهو الذي يقول " إن الانسان يمثل معادلتين : معادلة تمثل جوهره بصفته إنسان صنعه من أنقن كل شيء صنعه ، ومعادلة ثانية تمثله كائناً اجتماعياً يصنعه المجتمع ، ومن الواضح أن هذه المعادلة الأخيرة هي التي تحدد فاعلية الانسان ³ " .

ومن النقاط التي أبرزها بن نبي هي العلاقة بين المثقف وهويته الثقافية في ظل التحديات التي يواجهها المجتمع الجزائري ويظهر بن نبي أهمية المحافظة على الهوية الثقافية وتعزيزها من خلال الأعمال الأدبية والفنية ، إن الانسان المثقف بالنسبة لبن نبي الهوية ليست مجرد مجموعة من العادات والتقاليد، بل هي تعبير

عن الذات والتاريخ والثقافة، وفي هذا السياق كان لدى المثقف دور كبير في تعزيز الوعي الهوياتي وترسيخ قيم الهوية الجزائرية " وأن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلفي ، والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع "⁴ "القانون الخلفي" و"الدستور الجمالي" على حسب بن نبي للتعبير عن القيم الثقافية ، فالأول يشير إلى المبادئ الأخلاقية والقيم التي توجه تصرفات الأفراد وتشكل أساساً للسلوك الإنساني.

أما الدستور الجمالي فيعبر عن المبادئ الجمالية والفنية التي تشكل أساساً للتفاعلات والتصرفات الفنية والثقافية في المجتمع ، فيتجلى التركيز على أهمية القيم الثقافية في تحديد وتوجيه العلاقات الإنسانية ، فبن نبي أعطي مفهومين للثقافة ، الأول يرتبط بالتاريخ وقال " هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها : من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي ، أو عقلية ديكرت وروحانية جان دارك "⁵ فالحضارة هنا لا تأتي بشكل عشوائي، وإنما تستمد هويتها وطابعها من الأفراد الذين لهم تأثير على الفكر والثقافة كما يشير ذلك إلى التنوع الفلسفي والفكري في تأثير الأفراد على الحضارة وكيف يمكن أن يكون لهم دور محوري في تحديد مسارها وتوجيهها.

والمعني الثاني مرتبط بالتربية " فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد ، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير " فالثقافة تعالج مشكلة القيادة والجماهير على حد سواء ، يعني هذا أن التأثير الثقافي يلعب دوراً في تحديد كيفية تكوين القادة وكيفية تفاعل الجماهير معهم ، وقد تشمل هذه العملية مفاهيم ثقافية تؤثر في تقدير الفرد للقيادة وفهم الجماهير للمسائل الاجتماعية والسياسية، ويعني أيضاً أن القيم والعادات والتقاليد التي تنبع من الثقافة تلعب دوراً هاماً في تشكيل هوية المجتمع وتوجيه سلوكه وتنظيمه، والقضايا التي يعيش لأجلها.

3. فعالية الثقافة عند مالك بن نبي :

يدعو مالك بن نبي لأهمية بناء الوعي الثقافي لدى الأفراد والمجتمعات ، من خلال التعليم والتوعية بالتراث الثقافي والتاريخي ، وذلك لتعزيز الهوية الوطنية والتماسك الاجتماعي " وقد حدد بن نبي أربع دعائم تقوم عليها الثقافة : الدستور الاخلاقي والذوق الجمالي ، المنطق العملي والصناعة أو التقنية أو الفن ، وعلى هذا الاساس تكون الثقافة نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة ⁶ فيتم تشكيل الثقافة كنظرية للسلوك الإنساني ، حيث تؤثر في توجيه الأفراد وتشكيل سلوكهم وتفاعلاتهم اليومية بشكل عميق وشامل ، وبناءً على هذه الدعائم الأربعة يشير مالك بن نبي إلى أن الثقافة ليست مجرد مجموعة من المعرفة والمعلومات ، بل هي نظرية في السلوك البشري ، فهي تتأسس على القيم والمبادئ الأخلاقية والجمالية والعملية وتؤثر بشكل كبير على تصرفات الأفراد والمجتمع ، وبالتالي فإنها تسهم في تشكيل السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة فقط .

4. الهوية الثقافية :

تمثل الهوية جزء مهم في الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب ومن هذه الأهمية نسأل " هل يمكن تحديد الهوية ؟ ومما تتشأ ؟ هل هي هوية مكان ؟ فالإنسان يولد في بقعة من الأرض ، في وطن وفي دولة ، ينشأ فيه ويتربص أين يقضي طفولته وصباه ، ورجولته وشيخوخته يحن إليه كلما غادره ⁷ فعندما نريد أن نعرف ماهية الهوية فإننا نقول " أنها الخصوصية التي تميز فردا من غيره أو جماعة من غيرها وتمثل إنعكاسا لواقع ما ولتصورات معينة ⁸ من هنا يظهر أن الهوية مرتبطة بالذات فهي تتأثر بالحرية لأنها تعبر عن إحساس الشخص بذاته ، وهذا يعني أن الشخص يمكنه تشكيل هويته من خلال ممارسته لحيته ، ويمكن القول أيضا أن الهوية تتشكل وتتطور من خلال الحرية وهذه الأخيرة تعبر عن الهوية وتعززها ، فكلاهما يتفاعلان بشكل دائم ومستمر .

ويرتبط مفهوم الهوية بالجانب التاريخي من حيث الانتماء والوجود ، ويشكل خاصية في الذات الانسانية إذ "تكتسي المسألة الثقافية في عالم اليوم ، وفي مختلف

الجهات والأقطار أهمية خاصة فما من بلد إلا ويعاني بصورة ما وبهذه الدرجة أو تلك مظهراً أو مظاهر عدة تتدخل كلها في تكوين هذه المسألة أو تشكل إحدى تجلياتها ، حتى أصبح من الجائز القول إن المسألة الثقافية بمعناها الواسع هي المحرك للتاريخ"⁹ و كل مرحلة تاريخية لها طابعها الثقافي الخاص الذي يميزها فالفترات التاريخية المختلفة تتشكل وتتميز بالثقافة السائدة فيها ، كالعصور القديمة العصور الوسطى ، العصر الحديث كلها فترات لها ثقافتها المميزة التي أثرت في تطورها التاريخي .

هذا ما يدفعنا للقول بأن الهوية على مستوى الشخص لا تعني الذوبان في ثقافة الجماعة ، بقدر ما يكون للفرد القدرة على اتخاذ قرارات مستقلة تتماشى مع قيمه ومعتقداته الشخصية ، حتى لو كانت تختلف عن توجهات الجماعة ، فالمسألة تكون بين احترام ثقافة الجماعة والانتماء إليها وبين الاحتفاظ بالهوية الشخصية ، هذا التوازن يسمح للفرد بالتعبير عن نفسه بشكل كامل ، وتحقيق هويته الفردية دون فقدان الدعم والتفاعل الإيجابي مع المجتمع المحيط به .

فالأدوار والوظائف التي يؤديها الفرد هي أساسية في تأكيد وجوده الاجتماعي والحصول على الاعتراف من مجتمعه ، من خلال تقديم مساهمات ملموسة وأداء مهام ذات قيمة ، يمكن للفرد من خلالها أن يثبت نفسه كجزء مهم وفاعل في المجتمع ، مما يعزز شعوره بالهوية والانتماء .

أما الهوية الثقافية فهي " ليست خياراً يعود للشخص أن يقبله أو يرفضه أو يجري فيه عملية تبادل وفق مصالحه وأهوائه ومزاجه وإنما هي ضرورة لازمة لأنها استجابة طبيعية لمطالب الشخصية ، فالخاصية الجوهرية لهذه الشخصية هي أنها كيان ذو بعدين : خاص وعام بهما يتحقق وجودهما ويتعزز حضورهما في المجتمع ¹⁰ وجاءت الهوية كمنتوج ثقافي وجاءت الحاجة إليها لأنها ردة فعل لتحديات لم تكن موجودة في وقت سابق ويقول عبد الله الغدّامي " هي تحديات تجمع الاقتصادي مع السياسي مع الثقافي ، وتعيد على كل فرد صغيراً أم كبيراً أسئلة تتعلق بموقعه الكوني وموقع ثقافته حتى صار يدافع عن تاريخه مثلما يدافع عن نفسه ويدافع عن

ثقافته مثلما يدافع عن وطنه " ¹¹ و التحديات التي تواجه الأفراد تتداخل فيها الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية لتعيد طرح أسئلة جوهرية حول الهوية والموقع في العالم ، فالدفاع عن التاريخ والثقافة أصبح مسألة حيوية ، حيث يرى الأفراد أن حماية هذه الجوانب تشبه الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم ، مما يعكس أهمية الهوية الثقافية والتاريخية في حياة الإنسان.

5. الخصوصية الثقافية في ظل الهيمنة الاستعمارية :

تعرضت العديد من الشعوب في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية للسيطرة الأجنبية التي لم تقتصر على الجوانب السياسية والاقتصادية فحسب ، بل امتدت إلى المجالات الثقافية والفكرية ، فكان الهدف الرئيسي للمستعمرين هو استغلال الموارد الطبيعية والبشرية لهذه البلدان ، لكن في بعض الأقطار سعى الاستعمار إلى فرض هيمنته الثقافية لضمان السيطرة الشاملة كما هو حال الاحتلال الفرنسي للجزائر " تمر الثقافات كلها في كافة ظروفها ومراحلها بتقلبات عنصرية حتى لتصاب بالعمى الثقافي حيث تتناقض مع كل ما هو معلن من مبادئ ومثل ، بدءاً من جمهورية أفلاطون وهو أول تسجيل فلسفي للطبقية والعنصرية وتهميش الآخر إلى نظريات صراع الحضارات ودونية الشعوب والأعراق ¹² فالعنصرية الغربية موجودة في كل مرحلة من مراحل تطور الثقافات ، وأن هذه الممارسة تتعارض غالباً مع المبادئ المعلنة للعدالة والمساواة ، التي جاءت في شعارات هذه الدول بدءاً من الفلسفات القديمة وصولاً إلى النظريات الحديثة حول صراع الحضارات ، فكانت الثقافة المحلية وسيلة للمقاومة من طرف الروائيين وللتعبير عن الرفض الهيمنة الثقافية المفروضة بالقوة ، فالأعمال الأدبية والفنون الشعبية ، والشعائر الدينية كلها لعبت دوراً في تعزيز الشعور بالانتماء والهوية .

6. الخلفية الثقافية لرحلة الحج :

الحج في الرؤية الإسلامية ممارسة دينية واجتماعية ، فالرواية تستكشف الحج ليس كركن من أركان الإسلام الخمس فقط ، ولكن أيضاً كتجربة اجتماعية تجمع فيه مختلف الطبقات والفئات من المجتمع ، ويعكس العنوان "حج الفقراء" لمالك بن نبي التركيز على الظروف الاقتصادية للحجاج ، وكيف يؤثر الفقر على قدرتهم على أداء هذه الفريضة ، وما يترتب على ذلك من مشاعر وإحباطات نتيجة الجانب المادي الذي يمثل عائق أمام الطبقات الاجتماعية المعدومة ، وما تمثله هذه الرحلة العظيمة في حياة الانسان ، فهي رحلة البحث عن الهوية من خلال رحلتهم ، من خلال بحث الحجاج عن هويتهم الذاتية والدينية ، فالحج " هو دلالة الحج الثابتة في حياة المسلمين وهي صنفان: دلالة الشعيرة والمنزلة الاجتماعية"¹³ فمن ناحية دلالة الشعيرة فالحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة ، ويعتبر واجباً على كل مسلم قادر جسدياً ومالياً ، يقوم المسلمون بأداء مناسك الحج تقرباً إلى الله وطاعة لأوامره واتباعاً لسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ويتضمن الحج مناسك متعددة مثل الطواف حول الكعبة ، السعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ، كل هذه الشعائر تحمل رموزاً دينية عميقة وتعبّر عن الإيمان والخضوع لله ، أما على الصعيد الاجتماعي يشكل الحج أيضاً وسيلة لاكتساب الاحترام والمكانة في المجتمع ، فيُنظر إلى من أدى فريضة الحج كرمزية سامية ، ويلقب باسم "الحاج" مما يضيف عليه مكانة خاصة في المجتمع ، كما يعتبر الحج تجربة تحويلية تعزز مكانة الفرد في المجتمع وتكسبه تقديراً واحتراماً بين أقرانه وجيرانه ، هذا اللقب يشير إلى التزام الشخص الديني ويعتبر علامة على تقواه واستقامته في حياته .

7.الحوار مع الآخر في رحلة ابراهيم للحج :

في رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي يتجلى حوار الثقافات والأديان بشكل بارز حيث تُستعرض التفاعلات بين شخصيات تنتمي إلى خلفيات ثقافية ودينية مختلفة هذا الحوار ليس مجرد تبادل للكلمات والعبارات ، بل هو لقاء بين رؤى مختلفة للعالم وتجارب إنسانية متنوعة ، يعرض بن نبي مشاهد من رحلة بطل الرواية إبراهيم إلى الحجاز عبر المركب الذي مر بعنابة والتقى فيه بحجاج المغرب العربي ، وكان صاحب المركب غير مسلم ، وما دار من حديث على طول الرحلة بين الحجاج فيما بينهم ، وبين بعضهم وصاحب السفينة ، ومن أمثلة الشواهد في الرواية التي يحضر فيها الحوار بين الأنا والآخر :

"أنتم أيها المسلمون لا تأكلون الخنزير ولا تشربون الخمر ، أمحمد هو الذي يمنعكم"¹⁴

يجيب إبراهيم " ليس محمد من منع الخمر والخنزير بل إن الله هو الذي قد حرمها على المسلمين "¹⁵

البحار " ماذا يمكن للدين أن يبيني لو فرضنا أن هناك دينا عالميا ؟"¹⁶
 " لم أفهم جيدا ما دار بينهما ولكني واثق أن الحاج قد دافع عن الاسلام بحق ، إنه يتكلم الفرنسية بطلاقة "¹⁷

فإبراهيم الذي يمثل الأنا (المسلم) يرد بتوضيح العقيدة الإسلامية ويصوب سوء الفهم من خلال توضيح أن التحريم هو من عند الله وليس من النبي محمد ، والآخر هو البحار وعند طرحه تساؤلاً حول دور الدين في بناء المجتمع ، و فكرة وجود دين عالمي فالبحار من خلال كلامه يبدو مرتابا في قدرة الدين على بناء مجتمع عالمي موحد ، وهو موقف يعبر عن التفكير النقدي والتساؤل الذي قد يكون شائعاً في الثقافات التي تدعو للحوار والتسامح ، ويمكن للدين أن يكون قوة توحيدية قوية عندما يركز على القيم المشتركة والمبادئ الأخلاقية والطقوس الجماعية التي

تجمع الناس معاً ، ومع ذلك فإن قدرته على توحيد الشعوب تعتمد على كيفية تفسيره وتطبيقه .

ومن الشواهد السابقة يظهر عدم فهم بعض الحجاج للغة الفرنسية التي يتحدث بها قائد المركب ، فالفرنسية على الرغم من الاستعمار الذي حاول فرضها واستعمالها في مكان العربية إلا أن بعض الحجاج لم يفهموا فرنسية البحار ، فكان هناك حاج من بينهم يتحدث باللغة الفرنسية تكفل بالرد على كلام قائد المركب .

فالذات تتمثل في هذا الحوا في شخصية إبراهيم والحاج ، اللذين يدافعان عن الإسلام ويوضحان تعاليمه ، فهما يظهران التزامهما العميق بالدين من خلال الممارسات الروحية والإيمانية التي تشمل الالتزام بالتعاليم الدينية ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة وكذا والتفاعل الإيجابي مع المجتمع ، هذه المظاهر والسلوكيات لا تعكس فقط التزامهم الشخصي بل أيضاً تساهم في تعزيز الروابط الدينية والاجتماعية ، ويظهر من تواصل الحاج مع البحار باللغة الفرنسية تعزيزاً من موقفهم وانفتاحهم الثقافي .

أما الآخر الغير المسلم يتمثل في شخصية البحار الذي يعبر عن تساؤلاته وربما سوء فهمه للعقيدة الإسلامية ، كما يعبر عن الشكوك والتساؤلات التي قد تكون شائعة في الثقافة الغربية أو غير المسلمة .

تعكس هذه المقاطع حواراً بين الأنا (المسلم) والآخر (غير المسلم) حيث يتجلى الاختلاف في الفهم للتعاليم الدينية ، من خلال هذا الحوار نرى دفاع الأنا عن هويته وعقيدته ، ومحاولته لتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الآخر ، كما يتضح من السياق أن التواصل بين الثقافات يمكن أن يكون بناءً ويعزز من الفهم المتبادل والاحترام للغير .

8. الرمزية الثقافية لبعض الشخصيات في الرواية :

7-1/ شخصية إبراهيم :

من الأحداث التي جاءت في الرواية يقول السارد :
 "ماذا بعد يا ابراهيم ؟ مرة أخرى ثملا ؟ ألا تفكر أنك في هذه الساعة المتأخرة تزج
 جيرانك المساكين؟"¹⁸

فالسباق الذي جاء فيه هذا الموقف يتحدث عمي محمد إلى إبراهيم الذي
 يبدو أنه في حالة سكر مرة أخرى ، ويأتي في وقت متأخر من الليل ، يظهر من
 الخطاب أن هذا التصرف ليس الأول من نوعه أي أن ابراهيم معروف عنه السكر
 وشرب الكحول ، مما يوحي بتكرار هذه الحالة ، النبوة هنا تحمل طابع التوبيخ
 والعتاب ، مما يدل على الاستياء والغضب من تصرف إبراهيم الذي يزج الجيران ،
 وشرب الخمر ليس من سلوكيات المجتمع الجزائري ، فمالك بن نبي "رمز في البداية
 للمجتمع الجزائري الذ أنهكه الاستعمار ، وغير عاداته ، وجعله غارقا في الملذات
 والشهوات والماديات والرذيلة وهي ملخصة في رمزية بوقرعة ، أي صاحب قارورة
 النبيذ "¹⁹.

فالاستعمار لم يقتصر على السيطرة العسكرية والسياسية بل تعداه إلى
 التأثير السلبي على القيم والعادات ، والشخصية الرمزية "بوقرعة" تمثل الانفصال عن
 الجذور الثقافية والتقليدية للمجتمع الجزائري المحافظ ، والانغماس في سلوكيات دخيلة
 ، لقد بدد الخمر كل ما يملك إبراهيم من أسرة ومال وعقار ، لقد ضاع وسط ظلام
 النتيه ، يأتي السارد ليصف حالته ، ورغبته في التوبة واصلاح النفس :
 " رفع إبراهيم يديه متضرعا وقد فاضت عيناه بالدموع التي انهمرت على خديه ثم رفع
 بصره إلى السماء متمتما :

يا رب اشفني من شروري فأنا مريض ، اهدني سواء سبيلك فإنني ضال "²⁰
 يصور مالك بن نبي حالة ابراهيم السكير حين مر على المسجد ومراقبته
 لمشهد صلاة الجماعة ، هذا المشهد الذي سيغير من حياة ابراهيم رأسا على عقب ،

كيف لا ؟ فقد أدرك في تلك اللحظة أنه مريض ، ومرضه في أخلاقه وتتبعه للخمر وطريق الظلام ، يعترف إبراهيم بأنه مريض ليس بالمعنى الجسدي فقط ، بل في الجانب النفسي والروحي ، ويرى أن شروره تتمثل في المرض الذي يحتاج إلى الشفاء منه ، يعبر المشهد عن لحظة فطرية عميقة ومؤثرة ، تُظهر إبراهيم وهو في حالة من التوبة الصادقة والتضرع إلى الله ، طالباً الشفاء من شروره والهداية إلى الطريق الصحيح ، يظهر السادر عبر هذا المقطع على الضعف البشري والحاجة الدائمة إلى الدعم الروحي والإلهي " وإبراهيم في النهاية ومع التغيير الذي حصل أصبح يمثل ذلك المجتمع الذي استيقظ من حلمه ، ومنتفض لواقعه ، وقرر بناء نفسه وتغييرها فاستبدل المادة بالروح"²¹ لقد رجع إبراهيم إلى أصله ، وتخلص من ترسبات الثقافة الدخيلة على مجتمعه ، وتغيير كنيته من اسم العار إبراهيم بوقرة إلى اسم الشرف الحاج إبراهيم .

7-2/ شخصية الزوجة زهرة :

زوجة إبراهيم زهرة ، كانت امرأة صابرة تحملت الكثير من الإهانة والضرب " كانت تعاني منذ مدة من سلوك إبراهيم غير السوي الذي كان يعذبها خاصة بعد انتقال والديه إلى الرفيق الأعلى "²² وفاة والدي إبراهيم تمثل نقطة تحول مهمة في حياته يبدو أن هذا الحدث زاد من حدة أزمته النفسية وأدى إلى تقادم سلوكياته السلبية ويظهر مدى كان الاحترام الذي تكنه زهرة لوالدي إبراهيم ، لكن بعد المعاملة السيئة التي كانت تجدها من زوجها طلبت منه الخلع ، وتطلقت منه ، بعد هذا الطلاق كانت زهرة ترفض فكرة الزواج وفاء لوالدي إبراهيم ، وعندما حان وقت مغادرته لأرض الحجاز أرسلت له عن طريق العممة فاطمة سبحة والدته التي كانت تحتفظ بها " تبسم إبراهيم للعجوز الطيبة حتى يحبس دمعة هربت من مقلته .. وقال : أرجوك يا عمتي فاطمة أن تشكري زهرة عني "²³ .

يعكس هذا المقطع الذي أورده مالك بن نبي في روايته مشهداً إنسانياً عاطفياً ، حيث يحاول إبراهيم فيه السيطرة على مشاعره أمام العجوز الطيبة فاطمة ، ويطلب منها أن تشكر زهرة نيابة عنه ، الموقف يعبر عن عمق المشاعر الإنسانية والتي تجلت في ذات ابراهيم الطيبة ، وفي وفاء زهرة " لن أنسى أبداً زهرة وصبرها الرائع معي في محنتي ، أتمنى لها حجة لأنها تستحق ذلك " ²⁴ يعبر إبراهيم عن مشاعر امتنان وتأثر عميق اتجاه زهرة ، مشيراً إلى أنه لن ينسى دعمها وصبرها معه وتمنى لها الحج والالحاق به ، هو وفاء مقابل وفاء فإبراهيم يتمنى لزهرة مكافأة روحية عظيمة وأرسل لها خاتم من بلاد الحجاز ، فمعدن زهرة أبان عن شخصية جزائرية أصيلة شربت من ثقافة شعبية نقية بعيدة من شوائب الاستعمار .

7-3/ شخصية العم محمد :

عمي محمد صوره السارد كشخصية تتصح على الخير وترفض كل ما يمثل انحراف على طريق الحق والهداية فتصرفه ومعاملته لإبراهيم " ليحفظك الله ، ادخل ، ادخل مخاطبا السكير وهو يمد يده إليه لكي يساعده على تجاوز العتبة " ²⁵ فتجاوز العتبة التي أوردها السارد في هذا المشهد يمكن أن يكون رمزاً لتجاوز مرحلة صعبة في حياة السكير إبراهيم بوقرعة ، وليس مجرد تجاوز عقبة مادية في الطريق ، فالعتبة قد ترمز إلى العقبات النفسية والاجتماعية التي يواجهها إبراهيم ، وهذا ما عبر عنه السارد في نهاية الرواية عندما أرسل ابراهيم رسالة من الحج إلى عمي محمد " إلى عمي العزيز محمد النقي ، الوقور ، الكريم ، الشيخ العالم .. أن أدبت جميع مناسك الحج كما علمتني عند مغادرتي بونة " ²⁶ فرسالة الحاج إبراهيم تعبر عن الامتتان للعم محمد على الرعاية التي شهدا منه ، والتوجيه والارشاد ، هذا ما يعبر عن رمزية كبيرة لشخصية العم محمد .

7-4/ شخصية العم فاطمة :

العمة فاطمة هي زوجة العم محمد صديق عائلة إبراهيم "كانت زوجة الشيخ في انتظارهما وقد عيّنت الغرفة التي خصصت لاستضافة الحاج بالبخور ، كانت تكنّ له مشاعر أمومة لأنها رأته وهو يكبر " ²⁷ تعبر العمة فاطمة عن مشاعر الأم اتجاه إبراهيم ، هذا النوع من المشاعر يوحى بالحب والرعاية والعطف والوفاء ، هذا المشهد الاجتماعي يعبر عن حالة إنسانية راقية بين أبناء المجتمع الواحد " لابد أن والديك سعيدان الآن يا(سي) إبراهيم " ²⁸ العمة فاطمة في هذا المقطع من الرواية تعبر عن فرحة عارمة برحلة الابن إبراهيم للحج ، وعلامة ذلك هذا الاستقبال المفعم بالعاطفة والحنان " كانت (الميدة) تلك الطاولة ذات الأرجل القصيرة ، الخاصة بمسلمي شمال إفريقيا ، قد نصبت وأُعدت " ²⁹ هذا الاستقبال التي عكفت على تحضيره العمة فاطمة يظهر العادات والتقاليد النابعة من الثقافة الخاصة بالمنطقة والتي بقيت محافظة عليها على الرغم من الاستعمار الفرنسي الذي حارب الثقافة في في أرض الجزائر .

7-5/ شخصية الطفل الهادي :

الهادي هو ذلك الطفل الذي صعد على متن السفينة خفية من دون أن يشعر به أحد وكان قد التقى إبراهيم في ميناء عنابة ، يقول السارد "دهش إبراهيم ، الذي لم يبرح مكانه ، على سطح المركب ، حين تعرف على الطفل الذي كان يرتدي سروالا قصيرا ، والذي لم يكن سوى الفتى الذي ناداه قبل مغادرة بونة بالأمس باسم يا (بوقرعة) " ³⁰ دهشة إبراهيم تعكس عدم توقعه للقاء هذا الطفل على متن المركب وعمل على مساعدته من أجل تمكينه من أداء الحج معهم وتدخل في كل مرة لحمايته وعدم تعرضه للحرمان من الحج ، وبعد محاولات باءت بإبقاء الفتى في المركب وتكليفه ببعض المهام ، قال أحد الحجاج " سبحان الذي سهّل لهذا الولد

المعوز الحج ، حتى إنه سخر له المحافظ الكافر الذي أصبح أداة للإرادة الإلهية³¹.

فشخصية الفتى الهادي تعبر عن شخص فقير و محتاج ومع ذلك تمكن من تحقيق شيء عظيم يتمثل في شعيرة الحج ، لقد صور السارد قصة الطفل الهادي مع قصة ابراهيم وكيف تمكنا الاثنين من الذهاب في رحلة الحج ؟ " مغامرة هذا الفتى لها معنى سوف يعود إلى وطنه بلقب حاج³² فالحج يعتبر رحلة دينية وروحانية تتطلب جهداً وتحماً ، خاصة لشخص صغير ، ومغامرة الفتى في أداء الحج ليست مجرد سفر بل هي تجربة تحمل في طياتها معاني عميقة من الإيمان والصبر والتحمل فلقب الحاج في العديد من البيئة الإسلامية ، وفي الجزائر يحمل احتراماً وتقديراً فالأشخاص الذين ينجزون فريضة الحج يُنظر إليهم بوقار كبير مهما كانت أعمارهم البيولوجية .

8. خاتمة:

من خلال دراسة رواية "لييك حج الفقراء" لمالك بن نبي من منظور ثقافي ، نجد أن الرواية تمثل قطعة أدبية تبرز الهوية الثقافية الجزائرية بشكل بارز وتعتبر عن تجارب الشعب الجزائري خلال فترة الاستعمار الفرنسي ، ومن خلال تحليل عناصر الثقافة في المتن الروائي ، نجد أنها تعكس الصمود والمقاومة والتمسك بالهوية الوطنية والقيم الثقافية الجزائرية.

يظهر في الرواية تمثيل دقيق للتقاليد والعادات الجزائرية ، والتي تعكس الهوية الثقافية للمجتمع ، مما يساهم في تعزيز الوعي الثقافي وترسيخ الهوية الوطنية للجزائريين ، كما توفر الرواية منبراً للتعبير عن تجارب الشعب وصراعاتهم الثقافية وتسلط الضوء على الظلم والاستبداد الذي تعرضوا له خلال فترة الاستعمار .

علاوة على ذلك يعكس توجه الكاتب نحو الثقافة المجتمعية ، واستخدام العبارات الشعبية والتعبيرات الجزائرية الأصيلة ، تمسكاً بالهوية اللغوية والثقافية الجزائرية ورفضاً للهيمنة الثقافية الفرنسية ، التي حاربت الهوية الوطنية ، ومن خلال هذه اللغة والأسلوب تظهر قوة الشخصية الثقافية الجزائرية وقدرتها على التمسك بالذات والمقاومة بالرغم من المحاولات التاريخية لآخر لفرض شخصيته الثقافية ، ولعل مالك بن نبي من خلال روايته الوحيدة والتي كتبها عقب الحرب العالمية الثانية أراد توجيه رسالة للمستعمر الفرنسي مفادها أن الشخصية الجزائرية تمتاز بقوة ومتانة في مواجهة التحديات الثقافية الخارجية بفضل التراث التاريخي ، والقيم والتقاليد المتجذرة التي تساعد على الحفاظ على الهوية الوطنية والثقافية الجزائرية ، وتجعلها عصية على الذوبان في ثقافات أخرى .

9.الهوامش

- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، دار الفكر ط4 دمشق سوريا 1984 ص 25 1
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 26 2
- مالك بن نبي ، تأملات ، دار الفكر دمشق ط 5 ، 1991 ، ص 135 3
- مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، دار الوعي ، الجزائر 2012 ص 48 4
- مالك بن ، مشكلة الثقافة ص 77 5
- لويـزة لعميري ، مذكرة ماجستير ، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 86 6
- حسن حنفي ، الهوية مفاهيم ثقافية ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة 2023 ص 65 7
- سمير الخليل ، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ص 316 8
- 9 محمد العربي ولد خليفة ، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية ،وزارة الثقافة ، الجزائر 2007 ، ص 14
- سمير الخليل ، المرجع السابق ص 322 10
- 11 عبد الله الغدامي ، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، لبنان ، ط 2 ، 2009 ص 53

- 12 عبد الله الغدامي ، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ص 242
أبو يعرب المرزوقي ، منافع الحج الثقافية 2006 13
- 14 مالك بن نبي ، لبيك حج الفقراء ، ترجمة زيدان خوليف ، دار الفكر دمشق 2009
ص 104
- مالك بن نبي ، لبيك حج الفقراء ص 105 15
- مالك بن نبي ، المصدر نفسه ص 108 16
- مالك بن نبي ، المصدر نفسه ص 109 17
- 18 مالك بن نبي ، لبيك حج الفقراء ، ترجمة زيدان خوليف ، دار الفكر دمشق 2009
ص 32
- 19 عبد الرحمن حجو ، مقال رواية لبيك حج الفقراء ، قراءة تحت ظل ايديولوجية الرواية ،
مجلة حفريات العدد 1 2021 ص 12
- مالك بن نبي ، لبيك حج الفقراء ص 54 20
- عبد الرحمن حجو ، المصدر السابق ص 13 21
- مالك بن نبي ، لبيك حج الفقراء ، المرجع السابق ص 46 22
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 71 23
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 156 24
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 34 25
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 155 26
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 68 27
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 68 28
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 69 29
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 94 30
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 100 31
- مالك بن نبي ، المرجع نفسه ص 117 32